من مقدمة كتاب « رسوم دار الخلافة »

دنيـة القـــاضي
في العصر العباسي
للأســـتاذ ميخائيل عواد

(تتمـة ما نشر في العدد الماضي)

كان ببغداد قاضٍ يُعرف بالجذومي ، واسمه محمد بن محمد ابن اسماعيل بن شداد أبو عبد الله الأنصاري (المتوفى سنة ٢٩١هـ) حكى بن الجوزي قصة وقعت للجذومي هذا مع غلام من متقدمي غلمان الموفّق ، وكان أميرا يومذاك ، ومدار القصة دنّية الجذومي القاضي . قال أبو الفرج : « ... فقال المعتمد من هذا ؟ فقيل له الجذومي البصري ، قال وما إليه ؟ قالوا ليس إليه شيء ؛ فقيل مثل هذا لا ينبغي أن يكون مصروفاً فقلدوه واسطاً ؛ فقلده اسماعيل وانحدر ، فاحتاج الموفّق يوماً إلى مشاورة الحاكم فيما يشاور في مثله ، فقال استدعوا القاضي ، فحضر وكان قصيراً وله دنية طويلة ، فدخل في بعض الممرات ومعه غلام له ، فلقيه غلام كان للموفق ، وكان شديد التقدم عنده ، وكان مخموراً ؛ فصادفه في مكان خال من الممر ، فوضع يده على دنيته حتى غاص رأسه بها فتركه ومضى ، فجلس الجذومي في مكانه ، وأقبل غلامه حتى فتقها وأخرج رأسه منها وثنى رداءه على رأسه وعاد إلى داره . وأحضر الشهود ، فأمرهم بتسليم الديوان ، وَرُسُل الموفّق يترددون ، وقد سترت الحال عنه حتى ذكر بعض الشهود لبعض الرسل الخبر ، فعاد إلى الموفق فأخبره بذلك ؛ فأحضر صاحب الشرطة وأمر بتجريد الغلام وحمله إلى باب دار القاضي وضربه هناك ألف سوط . وكان والد هـذا الغلام من جلة القواد ، ومحله محلّ مَنْ لَوْ هَمَّ بالعصيان لأطاعه أكثر الجيش ، فلم يقل شيئاً . وترجل القواد وصاروا إليه وقالوا مرنا بأمرك ، فقال إن الأمير الموفق أشفق عليه مني ، فمشى القواد بأسرهم مع الغلام إلى باب دار الجذومي فدخلوا إليه وضرعوا له ، فأدخل صاحب الشرطة والغلام وقال له لا تضربه ، فقال : لا أقدم على خلاف الموفق . قال : فإني أركب إليه وأزيل ذلك عنه ، فركب فتشفع له وصفح عنه »[1]

ومن ظريف الترادف قول بديع الزمان الهمذاني حينما كتب إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد ، يشكو أبا بكر الحيري « ... ثم يلبس دنّيته ، ليخلع دينّيته ، ويُسوّي طَيْلسانه ، ليحرّف يده ولسانه ... »[2]

وفي بعض أخبار الظراف والمتماجنين أن سعد بن ابرهيم الكاتب قال يوما لعبّادة المخنّث : « يكون مخنث غير بغّاء ؟ قال : نعم . ولكن لا يكون مليح : يكون مثل قاضي بلا دنية »[3]

ولقد تقاذفها الشعراء في هجوهم . فمن قائل في حثّ متحكم على إعطاء رشوة إلى قاضٍ :

يا خليلي يا أبا الغيث درك ... نصب القاضي لكَ اليوم شرك
طلب البرطيل فابذلهُ لهُ ... يسكت القاضي وإلاّ ذكرك
لا يهولنك دَنّيّته ... أعطه من رشوة ماحضرك[4]

وعلى ذكر إعطاء الرشوة للقاضي ، وكان أمرها مشتهراً يومذاك ، قال عمارة اليمني (المتوفى سنة ٥٦٩هـ) في رسالته : « ... وقاضي مصرك ، قدمتا على الوالي ، فأدلى القاضي بالدنية ، وأدليت أنت بالهدية ... »[5]

وكان أبو الحسين محمد بن محمد بن لنكك البصري مولعاً بهجو كلاب بن حمزة العقيلي أبي الهيذام اللغوي . فمن أهاجيه التي تعرض فيها للدنية قوله :

نفسي تقيك أبا الهيذام كل أذى ... إني بكل الذي ترضاه لي راضي
ما كان أبدى فقيهاً إذ ظفرت به ... فكيف ألبسته دنية القاضي[6]

وهذا شاعر آخر من المائة الرابعة يسخر منها ؛ فيذكرها مقرونة بغراب نوح ؛ فيقول :

---

(١) المنتظم (٦ : ٤٩ طبع حيدر آباد)

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني (ص ١٦٨ ؛ المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، طبعة ثانية سنة ١٩٢١)

(٣) الديارات للشابشتي (ورقة ٨١ ب ؛ مخطوط برلين) ؛ وهذا الكتاب حققه أخي كوركيس عواد وأعده للنشر .

(٤) محاضرات الراغب الأصفهاني (١ : ١٢٥ ؛ طبعة سنة ١٢٨٧هـ)

(٥) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية (٢ ، ٤٤٠ ، طبعة درنبرج)

(٦) معجم الأدباء (٦ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ؛ مرجليوث) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي (المقامة التاسعة ١ : ١٠٨ ؛ طبعة سنة ١٣١٤هـ) ، وتاج العروس (٩ : ٢٠٣) .

كأنّ دنّيّة عليها . غراب نوح بلا جناح[1]

وقال آخر :

ترى قلانسهم كالرمح طعنتها . تخفى جراحتها فى جنب مغرور[2]

وقال الصابئ :

وفوقه دنّيّة تذهب طوراً وتجي[3]

وكانت بعض النساء يفزعن من رؤية القاضى بدنّيته ولحيته الطويلتين . فقد ذكر متز نقلاً عن الذهبي أنه : « كان ببغداد فى سنة ٣٦٨ للهجرة ، قاضٍ يُعرف بأحمد بن سيّار ، وكانت له هيئة وجثة مهولة (كذا ؛ والصواب : هائلة) ، ولحية طويلة ، فقدم إليه امرأتان ادّعتْ إحداهما على الأخرى . فقال : ما تقولين فى دعواها ؟ قالت : أفزع ؛ أيّد الله القاضى . قال : ماذا ؟ قالت : لحية طولها ذراع ، ووجه طوله ذراع ، ودَنّيّة طولها ذراع ؛ فأخذتنى هيبتها . فوضع القاضى دَنّيّته ، وغطى بكمه لحيته ؛ وقال : قد تقصتك (كذا ؛ والصواب : نقصتُ منك) ذراعين . أجيبينى عن دعوتها »[4]

وقد بالغ الناس فى درجة استهزائهم بالدنية واحتقارهم لها . فمن ذلك ما حُكِى عن أبى الظاهر الذهلى الذى ولى قضاء مصر فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٤٨ للهجرة أنه « كان فى خلافة المطيع يلبس السّواد ، ويضع على رأسه دَنّيّة طويلة تزيد على الدماغ (كذا ؛ والصواب : الذراع) ، فتحاكم إليه زوجان ؛ فبدر من المرأة فى حق زوجها كلام ، فقال لها : اسكتى هذا القاضى هو أبو الطاهر ؛ متى زدت من هذا المعنى نَزَعَ الخُفّ الذى على رأسه وقطعه على دماغك . فقال أبو الطاهر :

قم يا كذا إلى لعنة الله ! من أين لك أن هذا خفّ ؟ ... »[1]

هذه باقة أخبار فى لطائف دنية القاضى تناثرت هنا وهناك ، وكانت فى جميعها مدعاة للضحك والسخرية . فكم جلبت تلك الدنيات من الأذى والألم لكثير من القضاة ! وكم جرت عليهم من الويلات ! وكم من دنية غاصت برأس صاحبها ، وكم منها تعاورتها أيدى الصبيان والرعاع وتقاذفتها أرجلهم ، وكم من قاض ترك عمله بسببها

فلا غرو أن هذا الملبوس الدخيل على العرب لم يرق لهم ، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة ، فما انفكوا يعرضون به ويستهجنون شكله حتى خف استعماله شيئاً فشيئاً على مر العصور ، ثم زال من الوجود منذ عهد بعيد

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) ملحق الكندى (ص ٥٨٥ — ٥٨٦)

ومن أراد التوسع فى أخبار الدنية فليراجع : فتوح البلدان للبلاذرى (٤٣٤ طبع ليدن) ، ومحاضرات الراغب الأصفهاني (١ : ١٢٢) ، والمنتظم لابن الجوزى (٨ : ٢٧٥ ؛ حوادث سنة ٤٦٤ هـ) ، وخطط المقريزى (٢ : ٩٤ ؛ مطبعة النيل) ، ومعجم الثياب عند العرب لدوزى (ص ١٨٥) :

Dozy : Dictionnaire detaillé des Noms des Vetements chez les Arabes.

(١) و (٢) محاضرات الراغب (١ : ١٢٩)

(٣) شرح مقامات الحريرى للشريشى (١ : ١٠٨)

(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى (١ : ٣١٣ ؛ الترجمة العربية) نقلا عن تاريخ الاسلام الذهبى فى مجلة الجمعية الآسيوية الملوكية (JRAS, 1911, P. 669, Note 1.)

ستوديو مصر يقدم أبطال الكوميديا والرشاقة فى مصر
سليمان نجيب . أمينة شكيب . تحية كاريوكا . فؤاد شفيق
مع نخبة كبيرة من أشهر الممثلين والممثلات فى
أخيراً تزوج
إخراج الأستاذ جمال مدكور
حالياً — ٤ حفلات يومياً
بسينما ستوديو مصر س . ت ٢٩٧٣